أحمد بن شاهين (٩٩٥ – ١٠٥٣هـ) أديب الشام ومحور حركتها الفكرية في القرن الحادي عشر الهجري

الدكتور محمود الحسن(١)

(1) باحث في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو اتحاد المؤرخين العرب (بغداد).

ملخَّص البحث

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على شخصيّة فذَّة، كان لها إسهامات عظيمة في العلم والأدب والحياة الفكرية والاجتماعية بدمشق، في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، إنها شخصية أديب الزمان، كما وصفته كتبُ التراجم والأدب، أحمد بن شاهين القبرصي، العالم الكبير، والأديب المُبدع، حيث يتناول البحثُ حياتَه ومسيرتَه العلمية، وإنتاجَه الشعري، مع آراء نقدية تخصُّ عصرَه وخصائص أشعاره وموضوعاتها.

_ المقدِّمة:

لم تتوقَّف مسيرةُ العلم والأدب على امتداد تاريخ الأمة العربية، بل كان كلُّ جيلٍ يستوعبُ ما سبقَه من العلوم والمعارف والآداب، ويُضيف إليه ما يَستجدُّ في عصره، وما تصلُ إليه العقول والأذواق من ابتكارات واكتشافات.

ونصلُ إلى بدايات القرن الحادي عشر الهجري، حيث كانت الشام ولايةً عثمانية، وكانت دمشقُ من المدن الهامّة المزدهرة على المستويات كافةً، الدِّينية والاقتصادية والتِّجارية والثقافية، فمنها تعبر التجارةُ وقوافل الحجّ بين السلطنة العثمانية ومصر والحجاز، وبين الشرق والبحر المتوسط، كما شهدت الصناعة فيها ازدهارًا كبيرًا لتلبية الطَّلَب المتزايد على المنتجات الشامية، يُضاف إلى ذلك مكانتُها الدِّينية لدى المسلمين عامةً والعثمانيين خاصةً، إلى درجة أنه يُمكن اعتبارُها المَرجعيّةَ المهمّة للسلاطين العثمانيِّين، فيما يخصُّ الأمورَ الدِّينيّةَ وعلوم الشريعة.

وفي كنف هذا الازدهار الاقتصادي، والمكانة المتميِّزة، احتفظت دمشقُ بصدارتها للعلم والأدب، وتابعَت مسيرتَها التي كانت عليها في عصر المماليك، فازدادت تألُّقًا وتفوُّقًا في كافة مجالات العلم، وأصبَحت مدارسُها ومساجدُها منارات علميّةً، يقصدُها الطُّلّابُ والعلماء من أنحاء العالَم الإسلامي.

وهذا البحث يعود في إطاره الزمني إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، وإلى ربوع مدينة دمشق، حيث يُسلِّط الضوء على شخصية علميّة فذّة، كان لها تأثير كبير في الحركة الفكرية والأدبية في دمشق، إنه العالم الكبير والأديب المبدع أحمد بن شاهين، الذي اجتذب القلوب بظرفه، كما اجتذب العقولَ بدقائق علمه، فأمطرت سحائبُ فضله من العلم نفائسَ الدُّرَر، ومن الأدب محاسنَ الزَّهَر، ومن الوجدان أرَقَّ الشُّعور، ومن المواقف والعبقرية مَا لا يُحيط به الوَصفُ من اللَّطائفَ والنَّوادر.

وحين يُراجع القارئ في تراجم القرن الحادي عشر فإنه لا يكاد يعثرُ على أديب أو عالم عاش في دمشق، أو أقام بها، أو مرَّ فيها، إلا وله مع الأديب الشاهيني علاقة علمية، أو رابطة أدبية، أو تلمذةٌ وأستاذيّة، أو صداقة ومراسلات، أو فضل وتأثير، ولهذا جاء في عنوان البحث أنه كان محورَ الحركة الفكرية في دمشق.

وفي هذا البحث سأقتصر على الحديث عن حياة الأديب أحمد بن شاهين وسيرته، ثم أعرضُ

المدرسة الجقمقية التي درس فيها ابن شاهين

مختارات من أشعاره التي احتفظت بها كتبُ الأدب والتراجم، بغرض تسليط الضوء على شخصية متميِّزة في العلم والأدب، كان لها إسهامها الكبير في تاريخ دمشق وحضارتها الفكرية.

واللّه الموفق وبه أستعين.

أولاً _ حياته ومكانته العلمية والأدبية في عصره:

هو أحمد بن شاهين القُبرصيُّ الأصل الدِّمشقيُّ، وُلد بدمشق سنة (٩٩٥هـ)، وكان والدُه مَن قُبرص، أخذه العثمانيون أسيرًا حين أعادوا فتح الجزيرة سنة (٩٧٩هـ)، واستخلصوها من حُكم مملكة البندقية، وقَدموا بوالده إلى دمشق، فاشتراهُ بعضُ الأمَراء وتبنّاه، وجعلَه من أجناد دمشق، وأخذَ يزداد في الرِّفعة وعلوِّ الشأن والجاه، حتى أصبح من الأعيان، المُشارِ إليهم بالتَّقدُّم والفَضل.

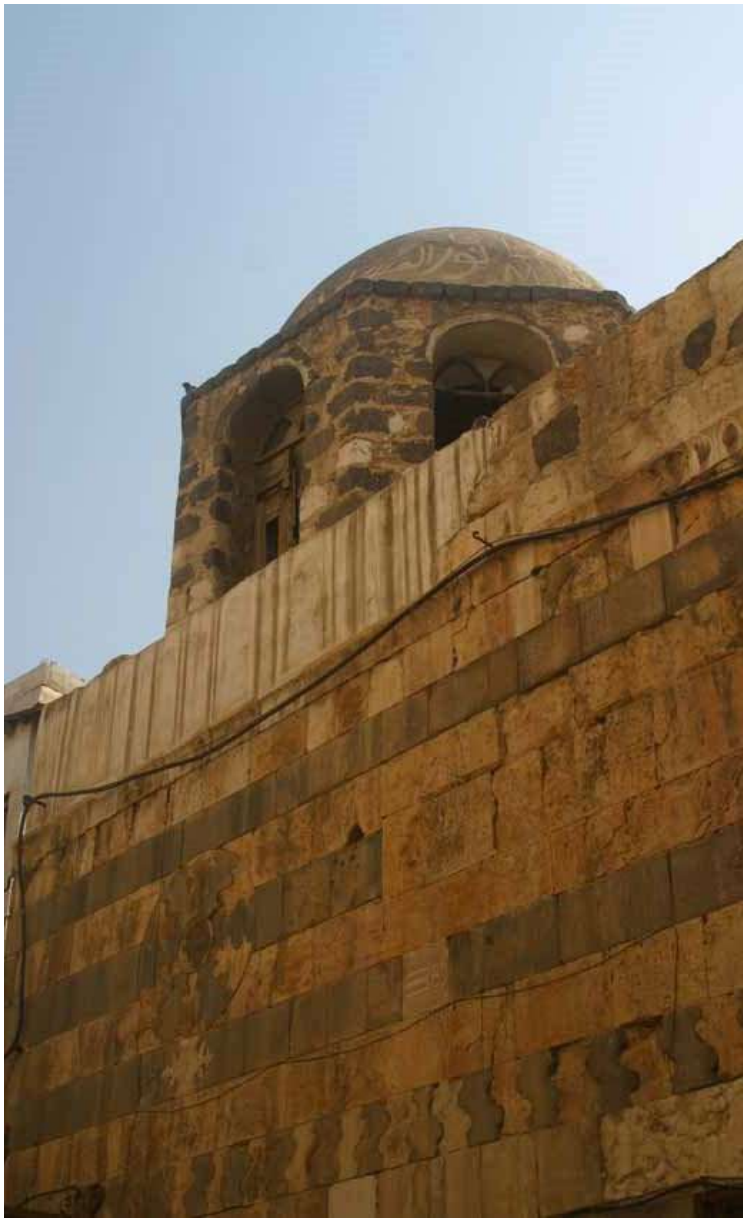

وفي دمشق وُلد أحمد بن شاهين، وتلقَّى مبادئ التعليم المُبكِّر في مدارسها وكتاتيبها ومساجدها، ثم انتظم في سلك الجنديّة، وحَظيَ في هذا السِّلك بمقانة مرموقة. وفي سنة (١٠١٥هـ) وقعت الفتنة المشهورة بين العسكر الشامي وعلي بن جانبولاذ الذي تمرَّد على السلطنة العثمانية، واستولى على مناطق شاسعة في الشام، وزحف مع فخر الدين بن معن على دمشق، وكانت له الغلبة، وانكسر العسكر الشاميُّ، ووقعَ أفرادُه بين قتيل وأسير وطريد، وكان من جملة الأسرى أحمد بن شاهين(٢).

وبعد أن صالحَ أهلُ دمشق ابنَ جانبولاذ أُطلق الشاهيني من الأسر، فترك الجنديّةَ إلى غير رجعة، وسلكَ طريقَ العلم والتَّحصيل، قال المُحبِّي: ولمّا أُطلِقَ من ربقة الأسرِ اعتاضَ عن الوشيجِ والحُسام بالقراطيسَ والأقلام، كما قال:

(2) يُنظر في تمرُّد عليّ بن جانبولاذ وزحفه على دمشق وما جرى من أحداث: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي (ت 1111هـ)، 3/ 135.

صَبَوتُ إلى حُبِّ الفضائلِ بعدَما تقلَّدتُ خَطِّيًّا وصُلتُ بمخذَمِ
وصارَ مدادي من سَوادِ مَحاجري وقد كانَ مُحمرًّا يَسيلُ كَعَندَمِ
ومارستُ من بعدِ القناةِ يَراعةً كأبيضَ مَصقولِ العَوارضِ لَهذَمِ(٣)

لازمَ في ابتداء رحلته العلمية علامةَ العصر الحسنَ البوريني(٤)، والشَّيخَ عمرَ القاريَّ(٥)، والشَّيخَ عبدَ الرَّحمنِ العِماديَّ مُفتي الشّام (ت ١٠٥١هـ)(٦)، وقرأ عليهم أنواع العلوم، وكانوا خيرة علماء دمشق.

وأخذ الآداب عن الشيخ أبي الطَّيِّب الغَزِّي(٧)، والشيخ عبد اللَّطيف بن المنقار(٨)، حتى برع في العلوم والآداب، والإنشاء في النَّظم والنَّثر.

قال المحبيُّ في الخلاصة: وصارَ أحدَ الفُضَلاء، وعينَ الأعيان، وكانَ مليحَ العبارة في الإنشاء، جيِّدَ الفكرة، حُلوَ التَّرصيع، لطيفَ الإشارة، جَواداً مُمدَّحاً، مُنشئاً بَليغاً، حسنَ التَّصرُّف في النَّظم والنَّثر، وكانَ الغالبَ عَلَيه في إنشائه العنايةُ بالمعاني أكثر مَن طلب التَّسجيع، وله رسائلُ بليغةٌ وآثارٌ شائعةٌ، واختصرَ حصَّةً من القامُوس، وزاد من عنده أشياءَ حَسَنَةَ الموقع.

وسلكَ طَريقَ عُلَماء الرُّوم، فلازم المُفتي الأعظَم صُنعَ اللّه بنَ جَعفَر(٩)، وناب في القَضاء بدمَشق، وتولَّى قضاء الرَّكب الشّاميِّ في سَنة ثَلاثينَ وألف، ولقي شَريفَ مكّة حينَئذٍ الشريفَ إدَريس بن الحسن، ومدحه بقصيدة مَطلعها:

يا رَبعُ صَبري عاد فيكَ دَريسا وهوايَ أمسَى في حماكَ حَبيسا

ودرَّسَ بالمَدرَسة الجقمقية بالفراغ من المنلا بُستان الرُّومي، نَزيلَ دمشقَ(١٠)، وأُعطي تدريس الدّاخل.

(3) نفحة الرَّيحانة، للمحبي، 1/ 97، وخلاصة الأثر 1/ 210. والرِّبقة: العقدة في الحبل أو العروة. والوشيج: شجرٌ تُتَّخذ منه الرِّماح. والقراطيس: جمع قِرطاس، وهو ما يُكتَب فيه. والخَطِّيُّ: الرمح المنسوب إلى الخَطِّ، وهو موضع باليمامة. والمِخذَم: السَّيف القاطع. والمحاجر: جمع مَحجِر، وهو موضع العين الذي يبدو من النقاب. والعَندَم: صبغ أحمر معروف. واليَراعة: القَصَبة يُكتَب بها، وتُطلق على القلم عامةً. واللَّهذَم: الحادُّ سيفًا كان أو قناةً.

(4) هو الشَّيخ حسن بن مُحَمَّد بن حسن بن عمر بن عبد الرَّحمَن الصفوري الأصل الدِّمَشقِي، الملقب بدر الدِّين البوريني الشّافِعي، كانَ فَردَ وقته فِي الفُنُون كلِّها، وكانَ يحفظ من الشّعر والآثار والأخبار والأحاديث المسندة والأنساب ما لم يُرَ قطُّ مَن يَحفظ مثلَه، ويحفظ دون ذَلِك من عُلُوم أُخَر مِنها اللُّغة والنحو والسِّيَرُ والمغازي ومن آلة المنادمة شَيئًا كثيرًا، وألَّف التآليف البديعة، التي مِنها تحريراته على تَفسِير البَيضاوِيّ، وحاشية على المُطوَّل، وشرح ديوان ابن الفارض، وغيرها، وتوفِّي سنة (1024هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي (ت 1069هـ)، ص42، وخلاصة الأثر 2/ 51.

(5) الشيخ القاري هو: زين الدِّين عمر بن أحمد بن محمد بن عيسى القاري الشافعي، إمام عصره في الحديث والأصول، توفِّي سنة (1046هـ). تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 3: 223.

(6) هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد العمادي الحنفي الدمشقي، مفتي الشام، ومن أكابر علمائها، له مؤلَّفات كثيرة، وعليه تتلمذ معظم علماء الشام في عصره، توفِّي سنة (1051هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا ص221، وخلاصة الأثر 2: 380.

(7) هو أبو الطَّيِّب بن محمد بن محمد الغَزِّيُّ الدمشقيُّ، كان من أذكياء العالَم وفُضَلائه، والمشهودِ لهم بالتفوُّق والبراعة في النَّظم والنثر، وعلى يديه تأدَّب كثيرٌ من الطلبة والعلماء في عصره، توفِّي سنة (1042هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا ص257، وخلاصة الأثر 1/ 135. ونفحة الرَّيحانة 1/ 85.

(8) هو عبد اللطيف بن يحيى بن محمد بن القاسم، المعروف بابن المنقار، الدمشقيُّ الحنفيّ، أخذ العلم عن الحسن البوريني وغيره، وبرع في الفقه والأدب والشعر، وتأدَّب على يديه كثير من الطلبة والعلماء، توفي سنة (1057هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا ص257، وخلاصة الأثر 3/ 20، ونفحة الريحانة 1/ 161.

(9) هو صنع الله بن جعفر، شيخ الإسلام، ومفتي السلطنة، والمرجع الأول في الفقه، قُلِّد منصب القضاء مرارًا في السلطنة، ثم حجَّ وأقام في دمشق إلى وفاته سنة (1021ه). تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 2/ 256.

(10) هو الشيخ الواعظ بستان الرومي، نزيل دمشق، كان من العلماء الصّالحين، متواضعًا طارحًا للتكلُّف، وكان يُلقي وعظَه في الجامع الأموي، وفي المدرسة السليمية بقاسيون، توفِّي سنة (1003هـ). تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 1/ 451.

ونَبُلَ قدرُه، وطارَ صيتُه، ومدحَه شُعراءُ عصره بالقَصائد السّائرة، ورأيتُ لبَعض الفُضَلاء كتابًا ضخمًا ألَّفه باسمه، وسَمّاهُ «الرِّياض الأنيقةَ في الأشعار الرَّقيقة»، افتتحه بقصيدة رائية في مدحه أوَّلُها:

رنا فرَماني بسَهم النَّظَرْ ... وسَلَّ منَ الجَفن سَيفَ الحَورْ
فأدمَى فُؤادي ولَا مُنكرٌ ... وأضحَى يُسائلُني ما الخَبَرْ؟
ومن عَجَبٍ عارفٌ بالَّذي ... عَراني، ويسأَلُ عَمّا ظَهَرْ[11]

وفي عام (١٠٣٧هـ) قدم إلى دمشق علاّمةُ المغرب الحافظُ أبو العَبّاس أحمد المَقَّريُّ التِّلمسانيُّ (ت ١٠٤١هـ)، فأنزلَه قومٌ من المغاربة في مكان لم يُعجبه، فأرسل إليه الأديبُ أحمدُ بن شاهين مفتاحَ المدرسة الجقمقية، مع أبيات شعرية في الترحيب به، فأعجبته المدرسةُ، فنقل أسبابَه إليها، واستوطنها مدّة إقامته، التي امتدت نحو أربعين يومًا، حتى شوال، حيث أملى في مدة إقامته صحيحَ البخاري في الجامع الأموي، والتقى بأكابر علمائها ومشاهير أعيانها، ونشأت بينَه وبين أحمد بن شاهين صداقة عميقة.

وكان ابن شاهين قد أرسل إليه، مع مفتاح الجقمقية، بهدية وبعض المال، وأرفقَ الهديّةَ بهذين البيتين:

لو كان لي أمرُ الشَّباب خَلَعتُه ... بُردًا على عطفَيكَ ذا أردانِ
لكن تعذَّرَ بعثُ أوَّلِ غايتي ... فبعثتُ نَحوكَ غايةَ الإمكانِ

فأجابَه المقَّريُّ بقوله:

يا واحدَ العَصرِ الذي بمَديحه ... سارَت ركابُ المَجد في البُلدانِ
أولَيتَني ما لا أقومُ بشُكره ... ما لي بشُكرِ المُنعمينَ يَدانِ
ونَظَمتَ أشتاتَ الكمالِ جواهرًا ... أضحَت تَفوقُ قلائدَ العقيانِ
فاللّهُ يُبقي من جَنابكَ سيِّدي ... عَينَ الزَّمانِ ومَفخَرَ الأعيانِ[12]

وممّا يُسجَّلُ للأديب الشاهيني أنه هو الذي أشار على التلمساني بتأليف كتاب نفح الطِّيب، الذي لم يُؤلَّف مثلُه في تاريخ الأندلس وأعيانها ومحاسنها وآدابها، وبقي يستحثُّه على تأليفه وإكماله بعد عودته إلى مصر، وجرت بينهما مراسلات كثيرة، أورد المقَّريُّ بعضًا منها مع جواباتها في النفح، وفيها ما يدلُّ على عمق الصحبة والتقدير والحبّ والاحترام، وقد أرسل إليه ابنُ شاهين كثيرًا من القصائد المطوَّلة التي عبَّر فيها عن حُبِّه وشوقه إليه، وأثنى فيها على علمه وأدبه، وهذه الأبيات من إحدى مطوَّلاته التي أرسلَها إلى المقرِّي[13]:

(11) خلاصة الأثر 1/ 210- 211.
(12) خلاصة الأثر 1/ 212.
(13) نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني (ت 1041هـ)، 2: 420.

أبداً إليكَ تَشَوُّقي وحَنيني ... وإلى جَنابِكَ، ما عَلِمتَ، سُكُوني
قَلبي كقَلبِكَ في المَحبّةِ والهَوى ... إذ كانَ في الأشواقِ دِينُكَ دِيني
ما أنتَ إلا البَدرُ لاحَ بأُفقِنا ... شَهراً وكانَ ضِياؤُه يَهدِيني
فاسلَم فَدَيتُكَ زائراً ومُشَرِّفاً ... أفدي مَواطِئَ نَعلِه بجَبيني
وكذاكَ عُمرِي في هَواكَ مُقسَّمٌ ... بَينَ الدُّعاءِ الجِدِّ والتَّأمينِ

وكانَ مع وفور أدبه ضيِّقَ الحال، قليلَ الحظِّ من الدُّنيا، كثيرَ الشَّكوى من تقلُّبات الزَّمان، وفي ذلك يقول(١٤):

وقائلة ما بالُ جَدِّكَ عاثرًا ... وأنتَ مُقيلٌ عَثرةَ الكُرَماء
فقلتُ ذَريني لا أبا لَكِ ليسَ ذا ... عثارُ جُدودي بل عثارُ ذَكائي

ومن عجيب خبر الشاهيني أنه امتُحِن بصناعةِ الكيمياء، وصرفَ عليها أموالاً جمّةً، ولم ينل منها طائلاً.

ويمكن القول بأنه بلغ مرتبة عالية بين أبناء عصره في العلم والأدب والإنشاء، وتلمذَ له كثيرٌ من العلماء والأدباء، وترك عدداً من المؤلَّفات منها كتاب الفاخر في اللغة، الذي شرح فيه واستدرك على جزءٍ من القاموس المحيط، ومنها ديوان شعر، إضافة إلى المراسلات النثرية والشعرية، وهذه المؤلَّفات لم تصل إلينا، وإنَّما بقي منها ما دوَّنته كتب التراجم والأدب عن عصره، وكان ابن شاهين بحقٍّ محورَ الحركة الفكرية والأدبية في دمشق، في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري.

وفيه قال يوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) في كتابه «ذكرى حبيب»: «طارَ صيتُ فَضله في البِلاد، وسرَى كلامُه مَسرى الأرواح في الأجساد، وما سَفَرَت رقّةُ النَّسيمِ إلّا عَن خُلُقه الكَريم، ومَن قاسَ جُودَه وكَرمَه بكعبٍ وحاتَم فقد ظلَمَه... وإذا قُرِنَت بَدائعُ نَظمه ونَثره بكَلامِ كلِّ مُتقدِّمٍ، من شعراء الشّام إلى عَصره، كانُوا المَذانبَ وهُو البَحرُ، والكواكِبَ وهُو البَدر، هذا وَكل إطنابٍ في مَدحه إيجازٌ، وكل حَقيقة لهُ من المَدح في غيره مجازٌ»(١٥).

وفيه قال المَحبي (ت ١١١١هـ): «أحمدُ بن شاهين عينُ الزَّمان ويَمينُه، لو حلفَ ليأتيَنَّ بمثله حَنَثَت يَمينُه. فهو شخصٌ كلُّه جُودٌ، وما من فضلٍ إلا في ذاته مَوجودٌ، مع شيمة لَو أنَّها في الماء ما تغيَّرَ، وهمّة لو أنَّها للنَّجم ما تغوَّرَ. وأياد روائحُ غوادي، كنسيم الرِّياض غبَّ الغَوادي. وشعرُه وإنشاؤه إذا رآهما الأديبُ قال: ليس للبلاغةِ إلا ذانِ، يلِجانِ السَّمعَ إلى القَلبَ بلا أذانٍ ولا استئذان»(١٦).

(14) خلاصة الأثر 1/ 212.
(15) انتهى كلام يوسف البديعي نقلًا عن خلاصة الأثر 1/ 217.
(16) نفحة الريحانة 1/ 96 -97.

وبالجُملة فإنَّهُ من نَوادر الأيّام، وكانَت ولادَته في سنة خمس وتسعين وتسعمائة، وتُوفِّي في شَوّال سَنَة ثَلاث وخمسَين وألف، ودُفن بمقبرة الفراديس، وكانَ يَومُ مَوته ماطراً جداً، فقال الأمير المنجكي يَرثيه[١٧]:

قُلتُ لمّا قَضى ابنُ شاهينَ نَحبًا   وهو مَولًى يُشيرُ كلٌّ إليه
رَحِمَ اللّه سَيّداً وعَزيزاً   بَكَت الأرضُ والسَّماءُ عَلَيه

ثانياً _ واقع الأدب والعلم في عصر ابن شاهين:

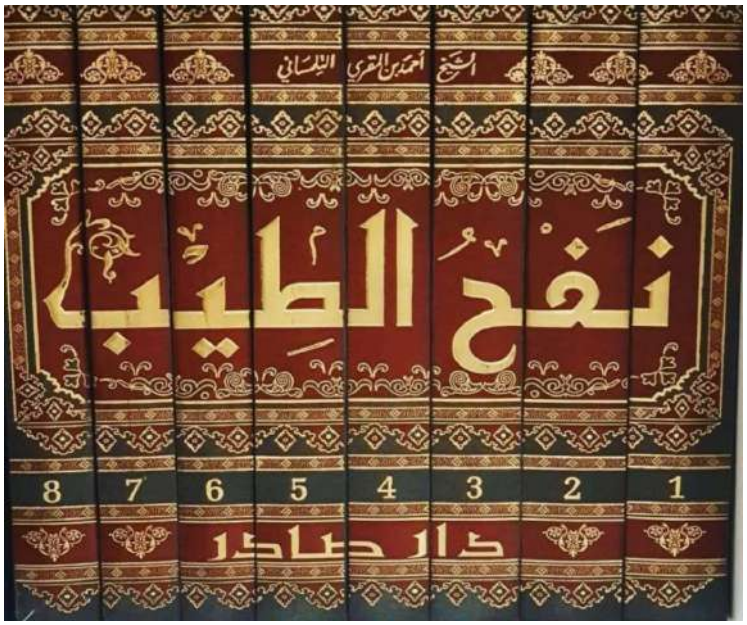

كتاب نفح الطيب الذي أشار ابن شاهين على التلمساني بتأليفه

ينتمي الأديب الشاهيني، وفق ما حدّده الدارسون لتاريخ الأدب، إلى العصر العثماني، الذي ظهرت فيه عبقرياتٌ فذّة في شتّى العلوم والمعارف، غلبَ عليها الطابع الموسوعي في العلم والتأليف. وقبل الدخول في أدب الشاهيني لا بدَّ من التعريج على السمات العامة للأدب في هذا العصر، وتصحيح بعض المقولات التي يتداولها كثير من الدارسين لهذا الأدب.

إذ يَشيع بين الدارسين المعاصرين بأن الشام، في ظلّ الحكم العثماني، كانت تعيش أسوأ أيامها، وينتشر فيها الفقرُ والفوضى والخراب، وأنَّ أهلها كانوا مُثقَلين بالضرائب والإتاوات، التي يفرضها عليهم الولاة والحُكّام وأصحابُ النُفوذ، ويُعانون من الظُّلم الكبير، وأن انتشار الفقر في الشام كان لسببين رئيسيَّين، هما اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، وتحوُّل تجارة الهند والشرق الأقصى عن بلاد الشام والمنطقة العربية، لتدور حول إفريقية وتصل إلى أوربة والغرب. والسبب الثاني هو فساد الولاة العثمانيين وسوء إدارتهم للولايات التابعة لهم[١٨].

ولكن عند النَّظر في كتب التاريخ والتراجم، التي واكبَت العصر العثماني، نجد أن مقولة هؤلاء الدارسين عن فساد الولاة العثمانيين وانتشار الفقر والفوضى، في الشام وغيرها من الولايات العثمانية، تَصدق على مرحلة تمتدُّ قرابة قرن ونصف، وتبدأ مع نهايات القرن الثامن عشر الميلادي إلى أواسط الحرب العالمية الأولى، وخروج العثمانيِّين من البلاد العربية عام ١٩١٦م، والسبب في ذلك يعود إلى ضعف السلطنة العثمانية في أواخر عمرها، والتطوُّر الكبير الذي شهدته الدول الأوربية، ومكّنها من امتلاك أسباب القوة والهيمنة على العالم، والتحكُّم بالولايات

(17) خلاصة الأثر 1/ 217.
(18) يُنظر: عصر الدول والإمارات: الشام، للدكتور شوقي ضيف، ص35-36 و44-45.

العثمانية، وغزو بعضها واحتلالها، كما حصل في حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م، واحتلال فرنسة للجزائر عام ١٨٣٠م، وغير ذلك من الحملات الإسبانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية والبريطانية على مصر ودول المغرب العربي.

أما مرحلة الحكم العثماني للبلاد العربية، التي تمتدُّ من عام ١٥١٦م، فقد كانت فيها الدولة العثمانية هي الأقوى على مستوى العالم، وتتحكَّم بالبحر المتوسط والدول المطلّة عليه، وحركة التجارة البحرية فيه، ثم أصابها الضعف، فتراجعت عن مركزها السابق، في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، ثم دخلت في تحالفات واتفاقيات مع الدول الأوربية، وبقيت متماسكة وقوية حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وكانت ولاياتها تنعم بالأمن والاستقرار، باستثناء ما يحصل بين الفينة والأخرى من تمرُّد بعض الولاة وما يصحبه من اضطرابات، سرعان ما تتكفَّل السلطنة بحلِّها وإعادة الأمور إلى نصابها[١٩].

ولا شكَّ أن تحوُّل التجارة إلى رأس الرجاء الصالح كان له تأثيره على البلاد العربية، ولكن ليس بالمستوى الذي يتصوَّره الدارسون المعاصرون، لأن الدولة العثمانية كانت تمتدُّ على مساحات شاسعة، وتجارتها مع الهند والشرق الأقصى ووسط آسية وأوربة بقيت مستمرّةً، والتجارة بين الولايات العثمانية ذاتها كانت تُحقِّق غير قليل من الرَّخاء والازدهار الاقتصادي، الذي يُعدُّ أساسًا للازدهار الفكري والعلمي.

وجدير بالذِّكر أن الشام في العصر العثماني قد فُتحت لها آفاقٌ تجارية واسعة، لم تكن من قبل، إذ أصبحت صلة الوصل بين عاصمة السلطنة العثمانية وما جاورها من المدن والبلاد والولايات الشمالية، وبين مصر والمغرب والعراق والحجاز، وكانت تمرُّ في مدن الشام قوافل الحجيج، التي تُعرَف بالرَّكب الشامي، أو الحجّ الشامي، مع ما يُرافقها من نشاطات تجارية واسعة.

فالشام عامةً، ولا سيَّما دمشق، في ظلّ الحكم العثماني، كانت تنعم بالرَّخاء والاستقرار، قرابة قرنين ونصف حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وقد رافقَ الرخاءَ الاقتصاديَّ نهضةٌ علمية في فروع العلوم والآداب، يدلُّ على ذلك كثرةُ العلماء والمؤلَّفات، وانتشار التعليم والمدارس، ونبوغ عدد لا يُحصى من الأدباء والعلماء، وخاصة في القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي، الذي ينتمي إليه الأديب والعالم الدِّمشقيُّ أحمد بن شاهين.

وقبل الحديث عن أدب ابن شاهين وأشعاره لا بدَّ من تصحيح مقولة أخرى، تخصُّ الأدب في العصر العثماني، إذ يشيع أيضًا بين الدارسين المعاصرين أن العصر العثمانيَّ هو عصر الجمود الفكري، والتقليد للعصور السابقة، وأن الأدب في هذا العصر قد تراجع عن المستويات التي كان عليها سابقًا، وأنَّ الأدباء افتقدوا روحَ الإبداع، وجعلوا يصرفون عنايتهم إلى النواحي الشكلية والمحسِّنات البديعية والتعقيدات الأسلوبية، على حساب الفكرة والمضمون[٢٠].

وهذه المقولة ربَّما تصحُّ من حيث النتيجة، التي تتمثَّل في غلبة الصنعة البديعية على الأدب في العصر العثماني، مع ما يُصاحبها من التكلُّف، وبرود العاطفة، وكثرة التقسيمات العقلية،

(19) يُنظر: التاريخ الإسلامي- العهد العثماني، محمود شاكر، ص109، والدولة العثمانية، للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، ص90.
(20) يُنظر: أمراء البيان، لمحمد كرد علي، ص-40 41.

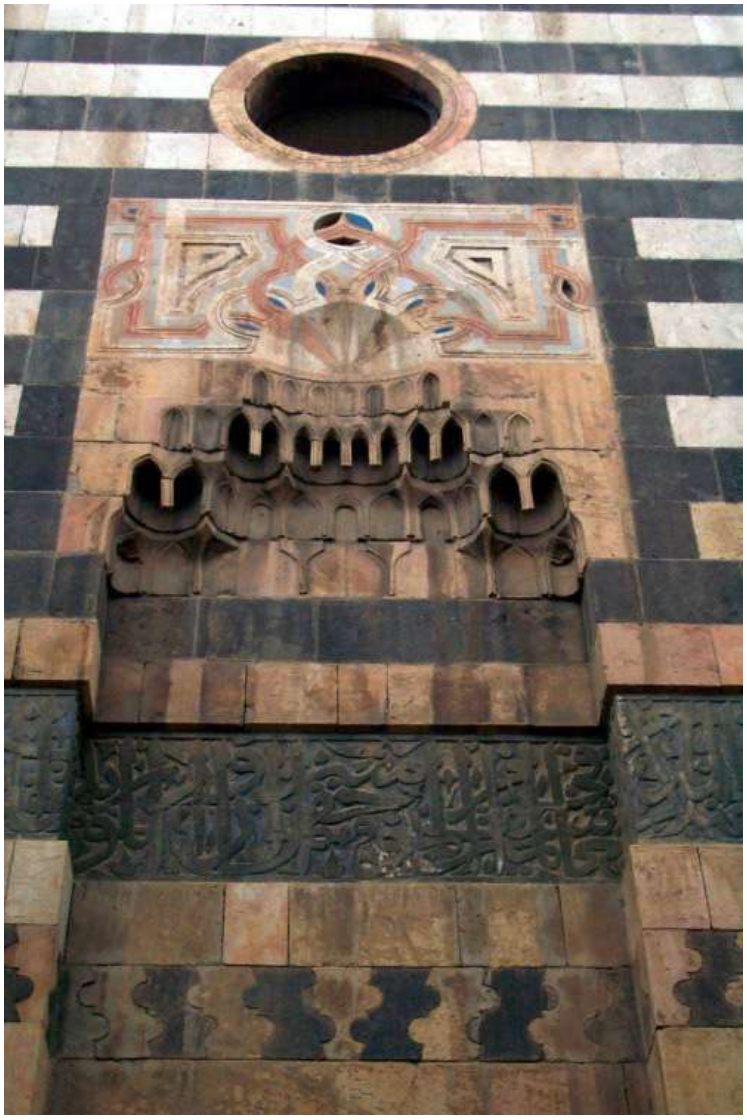

واجهة للمدرسة الجقمقية

والمحاكمات المنطقية، واستعمال ألفاظ العلوم، ولا سيَّما الألفاظ الفقهية، وكثرة التضمين، وغير ذلك من عناصر الصنعة والتكلف...

ولكن هذه المقولة لا تصحُّ من حيث الأسباب التي ذكرها الدارسون، والتي لخصُّوها في تراجع الأدب في هذا العصر، وأن الأدباء افتقدوا روح الإبداع، فصرفوا اهتمامهم إلى الشكل على حساب المضمون، وانشغلوا بالزخارف اللفظية على حساب المعنى، فهذا الحكم لا يصدق على الأدب في العصر العثماني، والدليل على ذلك من وجهين:

أولهما: أن الاهتمام بالمحسنات البديعية، والزخرفة اللفظية، لم ينشأ في العصر العثماني، وإنَّما يعود إلى أوائل العصر العباسي، وهو نتيجة طبيعية لما وصل إليه الأدب من تطوُّر، وما بلغته العقول من ترف فكري، جاء في كتاب العمدة لابن رشيق أن مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ) «هو أوَّلُ مَن تكلَّف البديعَ منَ المُوَلَّدينَ، وأخذَ نفسَه بالصَّنعة، وأكثرَ منها»[٢١]. فالاهتمام بالبديع والمحسِّنات اللفظية ليس مقتصرًا على العصر العثماني، بل هو سمة ارتبطت بالأدب منذ بداية القرن الثالث الهجري، وبلغت أوجها في القرن الرابع، واستمرَّت في القرون التالية.

وجاء في التذكرة الحمدونية: «وكانَت القُدماءُ تُوجزُ المُكاتَبات وتَختصرُها، وتَقنَع من الألفاظ بمُبلغها، وتَرى الإطالةَ عجزًا والإيجازَ إعجازًا، ولذلك قال يَحيى بن خالد لأولاده: إن استطعتم أن تكَون كُتُبكم كلُّها توقيعات فافعلوا. وعدلَ الناسُ الآنَ إلى الإسهاب، واعتاضوا عن البلاغة بالتفريع في الألفاظ»[٢٢]. فابنُ حمدون وهو من كُتّاب القرن السادس (ت ٥٦٢هـ) يُشير في كلامه هذا إلى انتشار الصنعة البديعية والزخرفة الشكلية في عصره، وميل الناس إليها، وهذا يعني أن الصنعة البديعية والزخرفة الشكلية لم تكن وليدة العصر العثماني، وإنَّما كانت في أوج تعقيداتها

(21) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق (ت 463هـ)، 1/ 131.
(22) التذكرة الحمدونية، لابن حمدون (ت 562هـ)، 6/ 314.

قبله بقرون، وكانت معيارًا على قدرة الكاتب وتمكُّنه من الألفاظ والأساليب والتعبير، فليس من المستبعد أن يلجأ إليها الأدباء في العصر العثماني، الذي عُرف عنه بأنه عصر الثقافة الموسوعية، والترف الفكري.

وثانيها: أنَّ العصرين المملوكي والعثماني هما عصرا العلم بامتياز، فمنذ بداية العصر المملوكي أصبحنا نرى في دمشق وحدها مئات المدارس والحلقات العلمية، التي يرتادها آلاف الطلبة، ويُشرفُ على كلٍّ منها عشرات العلماء والمدرِّسين. والسمة العلمية لهذين العصرين فرضَت على الجميع التوجُّه إلى العلم، وعدم الاقتصار على الأدب، ومن المعروف أن العقل الذي يتغذَّى بدقائق العلم وتفريعاته لا يبقى للشعر مكانٌ فيه، لأن الشعر يحتاج إلى ذهن صاف، وفكر متأمِّل، وعاطفة جيّاشة، وبال خلو من المسائل والمصطلحات، وهذا الجوُّ المطلوبُ للشعرِ لم يَعدْ موجوداً في العصرين المملوكيِّ والعثماني، لإقبال الناس على العلم، وتشجيع الأمراء والحكّام عليه، وارتباط مكانة المرء وجاهه به لا بالأدب.

فالأشعار التي وصلتنا من العصر العثماني وحتى المملوكي لم يكن قائلوها شعراءَ متفرِّغين للشِّعر، كما هو الشأن في العصر العباسي، وإنَّما هم علماء في الأصل، والشِّعرُ من اهتماماتهم الثانوية، فمن الطبيعي أن يكون دون مستوى شعر الفحول المتفرِّغين، كأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم. وبهذه الحقيقة يمكننا تفسير ما يُقَال عن الشعر المملوكي والعثماني بأنه دون مستوى الشعر العباسي.

وقد وقف قدماء النُّقّاد عند ما أسموه أشعار العلماء، وعَنَوا بهذه التسمية ما أُثر عن العلماء من أشعار، تتصف بالتكلُّف والبرود العاطفي والتعقيد الأسلوبي، ومردُّ ذلك أنهم لمَ يصدروا عن طبع وموهبة وخُلوِّ ذهن يسمح بظهور العاطفة وتوقُّدها، وإنما صدروا عن علم بأوزان الشعر وقوافيه، وعن عقولَ مشغولة بمسائل العلم ومصطلحاته والجولان في ساحاته.

قال ابن قتيبة معقِّبًا على أبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ): «وهذا الشعر بيِّن التكلُّف رديء الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعيّ، وشعر ابن المقفّع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنّه كان أجودهم طبعًا وأكثرهم شعرًا»[٢٣].

وقال ابن بسام في الذخيرة: «على أنَّ أشعار العلماء، على قديم الدَّهر وحَديثه، بَيِّنةُ التَّكلُّف، وشعرهم الذي رُوي لهم ضَعيفٌ»[٢٤]. والسبب في ذلك كما تقدَّم أن الشِّعر يحَتاج، مع الطَّبعَ والمَوهبة، إلى صفاء ذهن، وتفرُّغ كامل له، مع المداومة على قراءة أشعار الفحول، والتمرُّس بأساليبهم وألفاظهم، وَطرَائقهم في التعبير والتصوير. وما يحتاجُه الشعر لا يتوفَّر لدى العلماء، لانشغال عقولهم بدقائق العلوم والمصطلحات والمحاكمات المنطقية، وسيطرة الصبغة العقلية على كتاباتاهم وأساليبهم.

(23) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ)، 1/ 71. ويُنظر فيما قيل عن أشعار العلماء وخصائصها: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للحسن بن بشر الآمدي (ت 370 هـ)، 1/ 25، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام (ت 542هـ)، 2/ 824، وخلاصة الأثر 3/ 182، وجواهر الأدب، للسيد أحمد الهاشمي (ت 1362هـ)، 1/ 261.

(24) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 824.

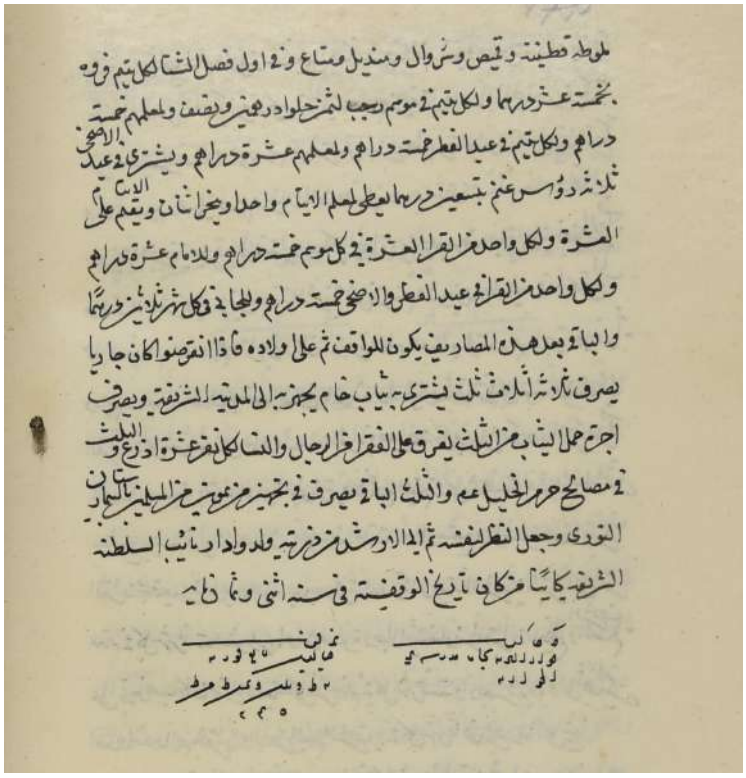

وقف المدرسة الجقمقية

ويُستَدلُّ من كلام النقاد أنَّ الميزة المهمّة التي عليها مدارُ الشعر هي العاطفة، التي عبَّروا عنها في مجال الغزل والنسيب بالرِّقة والعذوبة، وفي مجال الفخر والمديح بالقوة والمبالغة، ولذلك لم يُعجبهم ما خلا من العاطفة، مهما كانتَ تعابيره جزلة، ومعانيه مبتكرة، وصُوره دقيقة[٢٥].

وبهذا الاعتبار ميَّزوا، كما مرَّ، بين أشعار العلماء التي يسودها البرود العاطفي، وغلبة التقسيم والتفريع والمحاكمات العقلية، وبين أشعار الشعراء التي تتسم بحرارة العاطفة، ورقة الشعور، وترتسمُ فيها أصداءُ النفس الإنسانية وميولُها وأهواؤُها.

وبناءً على ما تقدَّم يُمكن القول بأنَّ الشِّعر، في العصرين المملوكي والعثماني، ليس في مستوى الشعر العباسي، من حيث سلاسةُ الأسلوب وحرارة العاطفة والجري على الطبع والمزايا الفنية الأخرى، ولكنَّ ذلك لا يعني أن هذين العصرين ساد فيهما الجمود الفكري والتقليد واختفاء روح الإبداع، كما ذهب بعضُ الدارسين، وإنَّما السبب في ذلك يرجع إلى أن العلمَ قد زاحم الأدب، في هذين العصرين، وأزاحَه إلى مراكز متأخِّرة، فلم تعد له المكانة التي كان يشغلها في العصر العباسي، ولذلك حمل المبدعون أنفسَهم على طريق العلم، الذي ازدهر ازدهارًا واسعًا في الشام ومصر وغيرهما، وأصبَح الأدب من اهتماماتهم الثانوية، فمن الطبيعي أن يكون دون المستوى الذي كان عليه في العصور التي كان المبدعون يتفرَّغون له، ويجتهدون في الإجادة والإبداع.

ثالثاً _ خصائص شعر ابن شاهين وموضوعاته:

تقدَّم سابقًا أن ابنَ شاهين، كغيره من رجالات عصره، انحاز إلى طريق العلم بعد أن ترك سلكَ الجندية، ولزم كبار علماء الشام كالحسن البوريني وغيره، ودرَّس في الجقمقية وغيرها، ووضع مؤلَّفات في اللغة، فلباس العلم ظاهرٌ عليه بلا شكّ، وصبغة المعرفة غالبةٌ على تفكيره وعقله، ولكنَّه في الوقت ذاته كان يسَير مع الأدب كما يسير مع العلم، ويغرف من معينه، ويُوطِّن نفسَه على ولوج مداخله ومجاهيله، وبلوغ قمَمه وغاياته، ولهذا استطاع بما أُوتيَه مَن مواهب وذكاء أن يضع حدًّا لطُغيان العلمِ، وأن يحفظَ للأدب مكانًا في قلبه ووجدانه وفِكره، فجاءت

(25) يُنظر بعض الآراء النقدية المرتبطة بهذا الجانب في: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، 119/6، وديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (ت 395هـ)، 1/ 222.

أشعاره على درجة فائقة من الحسن والسلاسة، وقلَّما تحقَّق ذلك لغيره من الشعراء العلماء، حتَّى إنَّ المُحبِّي (ت ١١١١هـ) كان يصفه بأديب الزمان، وأديب الدهر[٢٦]، فضلاً عمّا نقلتُه سابقًا ممّا قيل في أدبه وذكائه وشاعريّته.

وابن شاهين ليس له ديوان مطبوع أو مخطوط، وقد ضاعت معظمُ أشعاره، ولم يبقَ منها إلا ما احتفظ به المَقَّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) في كتابه نفح الطِّيب، ويوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) في مؤلَّفاته، التي منها ذكرى حبيب، والصُّبح المُنبي عن حيثيّة المتنبي، والمُحبِّي (ت ١١١١هـ) في كتابَيه نفحة الرَّيحانة وخلاصة الأثر، وابن معصوم (ت ١١١٩هـ) في كتابه سلافة العصر. وغالبها مقطوعات تتناسب مع مناهج كتب التراجم والمختارات الأدبية، التي تميل إلى الانتقاء والاختصار، ويبلغ مجموع أشعار ابن شاهين نحو (٥٠٠) بيت، تتوزَّع أغراضُها الشعرية بين المديح، والرثاء، والوصف، والاعتذار، والغزل، والشَّكوى، إضافة إلى موضوعات أخرى لم يصلنا عنها إلا القليل من أشعاره، كالفخر، والهجاء، والحكمة، والتصوير.

١- المديح:

المديح من أهم الأغراض التي لازمت الشِّعرَ منذ العصر الجاهلي، واستمرَّت في العصر العثماني، عصر الأديب أحمد بن شاهين، حيث كان الشعراء يمدحون السلاطين العثمانيِّين والحُكام، إضافة إلى العلماء والأعيان[٢٧].

والأديب الشاهيني له في المديح باعٌ طويل، حيث مدحَ بعضَ الولاة والأعيان والعلماء والأصدقاء، ويشهد له على ذلك لاميَّتُه المطوَّلة، التي مدح بها شيخَ الإسلام يحيى بن زكريا (ت ١٠٥٠هـ)[٢٨]، فافتتحها بالشَّكوى من تقلُّبات الزَّمان، ثم انتقل إلى المديح، وختمها بالفخر بشعره، يقول في افتتاحها شاكيًا من صروف الزمان[٢٩]:

لا يَسلَني عَنِ الزَّمانِ سَؤُولُ ... إنَّ عَتبِي على الزَّمانِ يَطولُ

وقد أثنى عليه يوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) في هذا المطلع، وعدَّه من الابتداءات الحسنة[٣٠]، ثم يمزج بين الشَّكوى والفخر، فيفتخر بثباته وصبره على المِحَن، كما سيأتي في الحديث عن موضوع الفخر، ثم ينتقل إلى المديح، على نحو قوله[٣١]:

بأبي أنتَ إنَّما أنتَ شَمسٌ ... لنُجوم السَّماء منكَ أُفُولُ
لو أعَرتَ الهلالَ منكَ كَمالاً ... ما اعتراهُ نَقصٌ ولا تَحويلُ
أو مَنَحتَ البَحرَ الخَضَمَّ وَقاراً ... قَرَّ حتَّى ما هَيَّجَتهُ القَبولُ
أو غَدا من مِزاجِ خُلقكَ فيه ... أثَرٌ كانَ دُونَهُ السَّلسَبيلُ

(26) يُنظر: خلاصة الأثر 4/ 453 و463.
(27) يُنظر: عصر الدول والإمارات- الشام، للدكتور شوقي ضيف، ص-148 149.
(28) هو شيخ الإسلام يحيى بن زكريا بن بيرام، ولد بالقسطنطينية سنة 999هـ، وتلقَّى تعليمَه فيها، ثم درَّس في بعض مدارسها، وولي قضاء حلب، ثم قضاء دمشق، ثم قضاء مصر، ثم عُيِّن في قضاء أدرنة، فقضاء القسطنطينية، ثم ولي قضاء العسكر في السلطنة، ثم ولي الإفتاء السلطاني سنة 1031هـ، وبقي يتدرج في المناصب ويرقى في العلم حتى وفاته سنة 1050هـ. تُنظر ترجمته في خلاصة الأثر 4/ 467.
(29) سلافة العصر في محاسن في محاسن الشعراء بكل مصر، لابن معصوم (ت 1119هـ)، ص379.
(30) يُنظر: الصبح المُنبي عن حيثيّة المتنبي، ليوسف البديعي (ت 1073هـ)، 2/ 194.
٣١ () سلافة العصر ص٣٨٠.

أو قَسَمتَ الذي حَويتَ منَ العلـ ـم لَما كانَ في الأنام جَهُولُ
حُزتَ رأياً لَو كانَ للسَّيفِ يَوماً رَونَقٌ منهُ ما عَراهُ فُلُولُ

وتَمضي القصيدةُ على هذه الشاكلة من دقّة المعاني والمبالغة في الوصف، علمًا أن المبالغة من الأساليب المحبَّبة لدى النُّقاد والأدباء، ولا سيَّما في مجال المديح، وتُعدُّ هذه القصيدة من المطولات، إذ بلغت أبياتها (٩٥) بيتًا، وهي تُعبِّر عن شاعريّة صاحبِها، وتمكُّنه من الأساليب والبيان.

وتقدَّم أن المَقَّرِيَّ التِّلمسانيَّ علامة المغرب زار دمشق سنة ١٠٣٧هـ، فاستقبَلَه أهلُها بالحفاوة والتكريم، وأرسل إليه الأديب الشاهيني مفاتيح المدرسة الجقمقيّة، ليُقيمَ فيها، مع هدية متواضعة وبعض المال، ولازمَه مدّة إقامته في دمشق، ونشأت بينهما صداقة متينة، وأشار عليه ابن شاهين بتأليف كتاب نفح الطيب، وحثَّه على ذلك، فعاد المقَّريُّ إلى مصر، حيث كان يُقيم فيها بالأصل، وعكف على تأليف كتاب النفح، وفي أثناء ذلك كان الأديب الشاهيني يُراسله، ويتلقَّى منه الأجوبة، وكانت المراسلاتُ بينهما من عيون النثر والشِّعر، وقد احتفظ بكثير مَنها المقريُّ في نفح الطيب، ومن أشعار الأديب الشاهيني في مديح المَقَّريِّ التِّلمسانيِّ قولُه في جواب إحدى رسائله[٣٢]:

أأنفاسُ عيسى ما بِرَوعي يُنفَخُ أم الطِّرسُ أضحَى بالعَبيرِ يُضمَّخُ
وهذي قَوافٍ أم هي الشَّمسُ إنَّني أراها على الجَوزاء بالأنفِ تَشمَخُ
بلَى هي نصٌّ من ودادكَ مُحكَمٌ تَزولُ الرَّواسي وهيَ لم تَكَ تُنسَخُ
أتَتني بمَدحٍ مُخجِلٍ فكأنَّها لفَرطِ حَيائي قد أتَتني تُوبِّخُ
وهَل أنا إلاَّ خادمٌ نعلَ سَيِّدي وبَيني وبينَ المَدحِ في الحَقِّ بَرزَخُ
فلا درَّ دَرِّي وانحرفتُ عَنِ العُلا إذا كانَ وُدِّي عَنَ مَعاليكَ يُفسَخُ
وحبُّك مَهما طالَ شَرقاً ومَغرباً بوكرِ ابنِ شاهينَ الوفيِّ يُفرِّخُ
وإنِّي وإن أرَّختُ مَجداً لماجدٍ فإنِّيَ باسمِ المَقَّريِّ أُؤَرِّخُ
سَميِّي ومَولايَ الذي راحَ مَدحُهُ لرأسِ الأعادي بالمَعاريضِ يَرضَخُ
ودُم يا نَظيرَ البَدرِ تَرقَى بأوجِهِ ولا زلتَ في طَريفٍ وقَلبيَ تَرسَخُ

وهذه القصيدة، كما هو واضح، تتزيَّنُ بانسياب تعابيرها، وعذوبة ألفاظها، وصدق عاطفتها، وتعبِّر عن مشاعر الحبِّ والأُخوة الصادقة، التي لا يَشوبها غرضٌ ولا مصلحة، بل يَعمرها الصدقُ، ويحوطها صفاء القلب، وتتدفَّق في معانيها أسمى مشاعر الشوق والحبّ.

٢- الرثاء:

ومن الموضوعات التي تناولها الأديبُ الشاهينيُّ في شعره موضوعُ الرِّثاء، الذي تُلجِئُ إليه مُصيبةُ الموت، ورحيل الأحباب والأصدقاء والأتراب.

(32) نفح الطيب 2/ 416- 417.

ومن مرثياته قوله في رثاء أستاذه مفتي الشام الشيخ عبد الرحمن العمادي الدمشقي الحنفي (ت ١٠٥١هـ)[٣٣]:

خَلَت الدِّيارُ فلا أنيسَ يُداني وتَضعضَعَت بتَضعضُع الأركانِ
وغَدَت دمشقُ وَليدةً مُستامةً للمُفلسينَ بأبخَس الأثمانِ
يا مُوحشاً أهلَ الحَياة بفَقده آنَستَ في المَوتَى حمَى رضوانِ
يا راقداً ثَقُلَ الرُّقادُ بجَفنَه أنعم عليَّ بيَقظة الوَسنانِ
يا مُفتياً طالَ السُّؤالُ لقَبرِه وجَوابُهُ مُتَعَذِّرُ الإمكانِ
هلا أجبتَ سُؤالَنا ولَطالَما كُنتَ المُجيبَ لنا عَنِ القُرآنِ
شَمسٌ بنُورِ العلم ضاءَت بُرهةً فكَسَت نُجُومَ الأرضِ باللَّمَعانِ
كَيفَ استَوى البَحرُ الخضَمُّ بحُفرةٍ أم كَيفَ حلَّ الكَنزُ في همْيانِ
يا عبدَ رَحمانِ السَّماواتِ العُلا أبشر برحمة رَبِّكَ الرَّحمَنِ

والقصيدة كما يذكر المحبي طويلة جدًّا، اختارَ منها بعضَ الأبيات، وما هو مُثبَت هنا انتقيتُه من مختارات المُحبِّي. والأبيات كما يبدو غزيرة المعاني، عذبة الألفاظ، بديعة التصوير، تتدفَّق فيها الموسيقا والعاطفة الجيّاشة، وكلُّ ذلك يشهد لصاحبها بعمق التجربة، والتمكُّن في الشاعرية، والقدرة على التأليف والنظم، خاصةً أن قصائد الرِّثاء تكون في الغالب مرتجَلة، أو على الأقل كُتبت على عجل، لأنَّ مناسبتها تأتي فجأة.

ومن مرثيّات الأديب الشاهيني قوله في رثاء أحد أعيان دمشق وأدبائها يحيى بن أبي الصفا المحاسني، الذي توفِّي شابًّا سنة (١٠٥٣هـ)، وكان الشاهيني صديقَه وأستاذَه[٣٤]:

رَحِمَ المُهَيمنُ ناظِمًا قِدَمًا لِهذا الشِّعرِ راوِي
يَحيَى الذي قَد ماتَ وهـ ـو لِمَفخَرِ الأحياءِ حاوِي
مَدَحَ الدِّيارَ وأهلَها ومَضَى فرَوضُ الأُنسِ ذاوِي
يا رَبِّ وسِّع مَرقَدًا هُو في مَضيقٍ منهُ ثاوِي
فبَنُو المَحاسِنِ كُلُّهُم مِن بَعدِ مَشهَدِه مَساوِي

وقصائد ابن شاهين في الرِّثاء كثيرةٌ جدًّا، بسبب ظهور نجمه في عصره، وعلاقاته الواسعة مع الحُكّام والأعيان، فمن الطبيعيّ أن تكون له مراث فيهم، إلا أن كُتب التراجم والأدب لم تحتفظ إلا بالقليل منها، وما أوردتُه هنا يكفي لتكوين صورة واضحة عن خصائص شعره في هذا المجال.

(33) خلاصة الأثر 2/ 388- 389.
(34) خلاصة الأثر 4: 463.

دمشق والأموي في العصر العثماني

٣- الوصف:

يُعَدُّ الوصفُ من الموضوعات المهمّة، التي جذبَت الشعراء في كل الأزمنة، وذلك بقصد ابتكار الصُّور الجميلة، أو تزيين التعابير بالمحسنات البيانية، أو الاستعانة بالطبيعة في إبراز المشاعر والأحاسيس، أو الرَّبط بين مشاهد الطبيعة وعالم النَّفس والوجدان.

فموضوع الوصف يشغل حيِّزًا واسعًا في التراث الشعري، فلا نجد شاعرًا إلّا سار في شعابه، وطرقَ أبوابَه، وتركَ أثرًا في ميدانه. وازداد اهتمام الأدباء بالوصف في عصور الصنعة، إذ وجدَوا فيه كلَّ ما يُناسبُ أذواقَهم في صنَاعة التصوير، التي مالَ إليها الناسُ واستجادوها.

ومن الشعرِ الوصفي عند الأديب الشّاهيني قولُه يصف الرَّبيع[٣٥]:

انظُر لأوراق الرَّبيع وقد بَدَت   مُحمَرّةً في صُفرة الأشجارِ
وكأنَّها لَمّا تَبَدَّت بَينَها   شَفَقٌ تَبدَّى في سَماءِ نُضارِ

ومن الواضح أن غرض الشاعر من الوصف هنا تصنيع الصُّور، فلفتَ انتباهَهُ أن حمرةَ شقائق النُّعمان وسطَ صفرة الأشجار تُشبه حمرةَ الشَّفَق وهي تظهر في سماء من الذهب. فالصُّورة جميلةٌ بلا شكٍّ، وإنَ لم تكن مبتكَرة، وهي تناسب أذواق الناس في عصره، ولا سيَّما الطلبة الذين يدرسون علوم البلاغة.

وممّا قاله في وصف الربيع أيضًا[٣٦]:

قد أُحبُّ الرَّبيعَ للَّهو فيه   بلَطيف الهَواء والأزهارِ
ثمَّ فصلُ الخَريفِ عنديَ أحلى   لاجتِنائي فيهِ لَذيذَ الثِّمارِ

(35) نفحة الريحانة 1/ 126.
(36) نفحة الريحانة 1/ 126.

ومن الواضح هنا أنَّها نُتفة مرتَجلة، أراد بها المزاح والتندُّر، وغالبًا ما كان الشعراء يتندَّرون بمثلها، ويُمازحون بها جلساءهم، عندما يكونون في نزهة.

ومن أشعار ابن شاهين في الوصف قوله في القهوة(٣٧):

وقَهوة كالعَنبر السَّحيق   سَوداءَ مثلَ مُقلة المَعشوق
أتَت كَمِسك فائح فَتيق   شَبَّهتُها في الطَّعم كالرَّحيق
تُدني الصَّديقَ من هَوى الصَّديق   وتَربِطُ الوُدَّ مَعَ الرَّفيق

وقال في وصف الثَّلج وتفضيله على القهوة(٣٨):

غَنيتُ بالثَّلج عَن سَوداءَ حالكة   من قَهوة لم تَكُن في الأعصُرِ الأُوَلِ
وقُلتُ لَمّا غَدا خِلّي يُعَنِّفُني: في طَلعةِ الشَّمسِ ما يُغنيكَ عَن زُحَلِ

٤- الاعتذار:

كان أحمد بن شاهين على خُلُق رفيع، وفيًّا لشيوخه وطلابه، محبوبًا من أعيان عصره، كريمًا جوادًا رغم قلّة ذات يده، حريصًا على حُسن الصُّحبة مع إخوانه، متفانيًا في سبيل استمرارها، ولا شكَّ أن العلاقات تخبو جذوتُها أحيانًا، وتذبلُ أوراقُها النَّديّة تارةً، فيستولي عليها الجفاء، حتى تُمطرَها سحائبُ الاعتذار، فتعود لها الحياة والنَّضارة.

والاعتذار ليس سهلاً على المرء، وهيهات أن تسمح به النَّفسُ، ولكنَّه مع صعوبة مركبه، ووعورة طريقه، لا يتأبّاه مَن فُطر على كرم النفس، وصفاء الطويّة، وحُسن الخُلق، فيتجرَّع كأسَه المُرّةَ، موقنًا أن وراء مرارة الدَّواء حلاوةَ الشِّفاء، وخلف تجهُّم السماء صفاءَ النَّهار، وبزوغ الأنوار.

ومن اعتذاريات الأديب الشاهيني أنه حصلَت بينه وبين أستاذه أبي الطَّيِّب الغَزّي مجافاة وقطيعة، بعد المودة والمُصافاة، فكتب إليه هذه الاعتذارية، التي يقول فيها(٣٩):

ألَمَّت أيادي الخَطب سائمةَ العَتبِ   على أنها العُتبَى تكونُ لذي الحُبِّ
لأيّة حالٍ يا بنَ خَيرِ أرُومة   أُذادُ عن العَذب الزُّلال بلا شُربِ
وأشرَبُ صابَ الدَّمعِ يَطفو أُجاجُه   لبُعدكَ، والأعداءُ واردةُ العَذبِ
فيا ليتَ شعري والأماني تَعِلَّةٌ   ورَوضُ المُنى يُنبيكَ عن وابلٍ رَطبِ
متى أرِدُ الإسعافَ في مَنهَلِ الرِّضا   وأعتاضُ عَن نَزرِ المَودّة بالسَّكبِ
وقد كنتُ آتي في السَّلام تَتابُعاً   فلمْ صرتُ أرضَى في الزِّيارة بالغِبِّ
وهَبْ أنَّني مارَستُ كلَّ جَريرةٍ   فحَسبي مِنَ الإعراضِ يا أمَلي حَسبي

(37) يُنظر: نفح الطيب 2/ 468، وسلافة العصر ص378.
(38) خلاصة الأثر 1/ 307.
(39) نفحة الرَّيحانة 1/ 116.

والقصيدة تتألف من (١٦) بيتًا، يذكر فيها بعضَ الحوادث التاريخية، التي شهدت جرائمَ وذنوبًا ومَعاصيَ، وأنَّه لم يرتكب واحدةً منها، ليستحقَّ هذا الجفاء من أستاذه، وهو في قصيدته ينحو منحى ابَن زيدون في رسالته الجدِّيّة، التي يستعطف فيها أمير قرطبة ابنَ جهور، على نحو قوله: «فليت شِعري ما الذَّنبُ الذي أذنبتُ ولم يَسَعْه العَفوُ؟ ولا أخلُو من أن أكونَ بريئًا فأينَ العَدلُ؟ أو مُسيئًا فأينَ الفَضلُ؟ وما أراني إلا أُمرتُ بالسُّجود لآدمَ فأبَيتُ واَستكبرتُ، وقال لي نوحٌ: اركَب معَنا، فقلتُ: سآوي إلى جبل يَعصمُني مَنَ الماء، وتعاَطيتُ فعَقرتُ، وعكفتُ على العجل، واعتديتُ في السَّبت، وشربتُ من النَّهر الَذى ابتُلي به جَنودُ طالوتَ، وقُدتُ الفيلَ لأبرهةَ...»[٤٠].

ثم إنَّ الأبياتَ الَتي اخترتُها تظهر فيها محاكاةُ النابغة في قصيدته البائية المشهورة، التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر، ومطلعها[٤١]:

أتاني، أبَيتَ اللَّعنَ، أنَّكَ لُمتَني وتلكَ الَّتي أهتَمُّ منها وأنصَبُ

فقد اختار ابن شاهين البحر ذاتَه والرَّويَّ نفسَه، وكأنَّه أراد بذلك أن يُوصل لأستاذه أنَّ مكانتَه عندَه كمكانة النعمان بن المنذر عند النابغة، وإذا كانت الشعراء تُخطئ في حقِّ الملوك، فالأولَى أن يُخطئوا في حقِّ الأصحاب والأحباب، ومهما كان الجرمُ عظيمًا فالعَفوُ أوسَع وأعظم.

وبالجملة فالقصيدة فيها من العاطفة وسلاسة الأسلوب وجمال الألفاظ ما يشهد لصاحبها بالشاعرية والتمكن من فنِّ الشعر، ولكن لا تخلو من بصمات العلماء، فالشعراء المطبوعون يُطالعون في التراث الشعري، ويحفظون ثم يتناسون، ليمتلكوا الألفاظ والتعابير ويصقلوا موهبتهم، فلا تظهر في أشعارهم كثرة التفاصيل والحقائق والحوادث التاريخية، أما العلماء فإنهم يستمرُّون في إملاء محفوظاتهم على طلابهم، فتبقى حاضرةً في أذهانهم، وتظهر في كتاباتهم الشعرية والنثرية على حدٍّ سواء، كما عند شاعرنا الشاهيني في الأبيات التي لم أنقلها من القصيدة السابقة.

٥- الغزل:

وصلنا من شعر الأديب الشاهيني بعض المقطوعات والنُّتَف، التي تفيض بين سطورها عاطفةٌ جيّاشة صادقة، تُعبِّر عن الحبِّ العذريّ في أعلى صوره، ذلك الحبُّ العفيف الذي يليق بذوي الجاه والعلم والفضل.

ومن غزلياته الرقيقة قوله[٤٢]:

إنِّي أبثُّكَ حُبّا حُبًّا يُري السلِّمَ حَربا
يا مَن كوى ألفَ قلبٍ سامحْ من النّارِ قَلبا

فهذان البيتان جاءا على وزن المجتث، وهو بحر قصير، قليل الكلمات، يُناسب موضوع الحبّ، والتعبير عن المشاعر بعفوية وبساطة، فضلاً عن الألفاظ ذات الإيحاء العاطفي، وما فيهما من صدق المشاعر، والتهالك في الحبِّ، ونهاية الخضوع للمحبوب، وبهذه المعايير يقيس النُّقاد جودة الشعر الغزلي، قال أبو هلال العسكري: «وينبغي أن يكون التَّشبيب دالاً على شدّة الصَّبابة، وإفراط

(40) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت 733هـ)، 7/ 291- 292.
(41) ديوان النابغة الذبياني، ص27.
(42) نفحة الريحانة 1/ 119.

الوجد، والتَّهالك في الصَّبوة، ويكون بَريًّا من دلائل الخُشونة والجَلادة، وأمارات الإباء والعزّة»[٤٣].

ومن غزلياته التي تفيضُ رقّةً وعذوبةً، وتظهر فيها شِدّةُ الصَّبابة، وغايةُ الخضوعِ للمَحبوب، قوله[٤٤]:

علَّمتَني الذُّلَّ حتَّى صرتُ آلَفُهُ — وما التَّذَلُّلُ خُلقُ البازِ والأسَدِ
يا مَن أهانَ فُؤادي من مَحبَّته — أعَزَّكَ اللّه فارحَمْني ولا تَزِدِ
قد صرتُ طَوعَ يَدِ الأشواقِ مُكتَئِباً — من بَعدما كانَتِ الأشواقُ طَوعَ يَدي

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن عذاب الحبِّ، وتصوير ما يلقاه العاشق من اللَّوعة والحُرقة، وآلام الشوق والصُّدود، حتى غدت تلك المواجع مستعذبةً عندهم، يتغنَّونَ بمرارتها، ويفتخرون بها، وهي تُقطِّع أكبادَهم وقلوبَهم، يقول الأديب الشاهيني[٤٥]:

لاحَظتُه فتغيَّرَت — لَحَظاتُهُ غَضَباً لحَربي
فاستلَّ من أجفانه — سيفًا وأغمَدَهُ بقَلبي
يا مَن رأى في دَهرِه — قلبًا غدا غمدًا لعَضبِ

ومن غزليّاته التي يشهد لجَودتها وحُسنها رقّةُ الألفاظ، وسَهولة التناول، وبساطة الأسلوب، وجمال التصوير، وعذوبة الموسيقا على مجزوءِ الرَّمَل، والغنى بالعاطفة الجياشة، قوله[٤٦]:

يا شقيقَ الظَّبي لَحظًا — والرَّشا في لَفَتاتكْ
فُقتَ غُصنَ البانِ قَدًّا — والنَّقا في خَطَراتكْ
لَستَ هاروتَ ولكنْ — سحرُهُ من حَرَكاتكْ
عَظَّمَ اللّه بصَبري — أجرَ ماضي لَحَظاتكْ
أنا واللّه قَتيلُ — هالكٌ من نَظَراتكْ
جَرَحَت قَلبي وهذا — شاهدي في وَجَناتكْ
أنا أستَبقي حَياتي — لتُقَضَّى في حَياتكْ
كيفَ تَعصيكَ حَياةٌ — هي من بَعضِ هِباتكْ
آه من ضَعف غَرامي — وتَقَوِّي عَزَماتكْ
آه من طُول عَنائي — وتَداني خَطَراتكْ

ومن غزليّاته التي تبدو فيها الصنعة البلاغية، والصبغة المنطقية، كما هو الشأن في أشعار العلماء عامة، قوله[٤٧]:

(43) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري (ت 195هـ)، ص129.
(44) نفحة الريحانة 1/ 123.
(45) نفحة الريحانة 1/ 120. والعَضب: السيف القاطع.
(46) نفحة الريحانة 1/ 120.
(47) نفحة الريحانة 1/ 125.

عَجبتُ للشَّمس إذ حلَّت مُؤَثِّرةً ... في جَبهة لَم أخَلها قطُّ في البَشَرِ
وإنَّما الجَبهةُ الغَرّاءُ مَنزلةٌ ... مُختَصّةٌ في ذُرا الأفلاك بالقَمَرِ
ما كنتُ أحسَبُ أنَّ الشَّمسَ تَعشَقُه ... حتَّى تَبيَّنَت منها حِدّةَ النَّظَرِ

فالأبيات كما يبدو تغلبُ عليها الصبغة المنطقية، والنظر العقلي، ويظهر ذلك في استقصاء الفكرة، والإلحاح على جوانبها، واستثمار كلِّ تفاصيلها، وهذا ليس من عادة المطبوعين من الشعراء، خاصةً أنَّ الشِّعرَ بطبيعته لا يتلاءَمُ مع التفاصيل واستقصاء الجزئيات، وإنَّما مع الإجمال والكُلِّيّات، لأنَّ الإحاطة بجزئيات الفكرة كلِّها يكون سبباً في تنحِّي العاطفة، وسيطرة المنطق والنظر العقلي على النصّ.

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع الغزل العذري يستغرق معظَم أشعار الشاهيني، ويكفي أن قصيدته الميميّة، التي تبلغ (٦١) بيتًا، هي في موضوع الغزل، وشكوى الحبيب، وألم الهجر والصُّدود، وأمنيات العاشق الولهان، ومنها قوله[٤٨]:

حكَّمتُهُم في فُؤادي حَسبَما رَسَمُوا ... فلَيتَهُم حَكَمُوا بالعَدلِ إذ حَكَمُوا
جارُوا ولَو عَلِمُوا أنِّي لحُكمِهِمُ ... طَوعُ القِيادِ لَما جارُوا ولا ظَلَمُوا
هُم عَرَّضُونَا لبَلواهُم بقُربِهِمُ ... حتَّى إذا ما رأوا إقبالَنا سَئِمُوا
كُنّا بَنَينا لَهُم في القَلبِ مَنزلَةً ... عَلياءَ حتَّى إذا ما شُيِّدَت هَدَمُوا
ظنُّوا بنا غيرَ ما تَطوي سَرائِرُنا ... واللّه يأبَى الذي ظَنُّوهُ والكَرَمُ

وأبيات القصيدة كلِّها تسير على هذا النحو من الرِّقة والعذوبة والسلاسة، وهي تُعطينا فكرة كاملة عن أدب الشاهيني، وأسلوبه الرائق، ومستواه الفني، وغناه بالعاطفة، وصدوره عن طبعٍ صافٍ، وقلم متمرِّسٍ، رغم مزاحمة العلم له.

٦- الشَّكوى:

موضوع الشكوى لا يقتصر على شاعر دون آخر، بل يشمل كلَّ النّاس، فهذا يشكو من الفقر، وذاك يعتب على الدهر، وآخر يندبُ حظَّه العاثرَ، وهناك من يشكو من المصائب، أو يبكي من الفراق والغربة، والكلُّ يُقلقُهم صوتُ الموت، الذي يجول في كلِّ مكان، ويُرسلُ رُسُلَه إلى كلِّ إنسان، ألا إنِّي قادمٌ فاسبقني إليهم أيها الشَّيبُ، وأنذرهم أيُّها الدّاءُ، وأبلغهم أيها الزمن، فإنَّك إذ تجري تُقربهم من آجالهم، وتنقصُ بمرور أيّامك أعمارَهم.

وشاعرنا، فيما وصلنا من أبياته، كان كثير الشكوى، ولكن هذا لا يعني أنَّه يميل إلى الكآبة والسوداوية، لأن الشعر ابنُ اللحظات، ووليدُ المواقف والمفاجآت، فما يحمله من مرارة وهموم لا يُعبِّر عن حياة الشاعر في الغالب، بل هو تعبير عن إحساس مؤقَّت لا يلبثُ أن يزول، وترجمةٌ لحالة عاشها الشاعر في تأمُّلاته وخُلُوِّه مع ذاته، ثم انجلت وتبدَّدت، مع ولادة القصيدة.

وإذا أردنا فهمَ العلاقة بين حياة الشاعر وشعره فنستطيع تشبيه حياته بلوح من زجاج

(48) نفحة الريحانة 1/ 131.

شفّاف، وتشبيه شعره ببُقعة حمراء مثلاً في وسط الزجاج، فإذا أردنا أن نحكم على حياته من شعره فكأنَّنا وضعنا أعيُنَنا على البقعة الحمراء، فتبدو لنا الطبيعة كلّها حمراء، وهذا خلاف الواقع، فالشِّعرُ نستشفُ منه بعضَ الجوانب المتعلقة بحياة الشاعر، لكنَّه لا يُعبِّر تعبيرًا دقيقًا عن حياته، لأنه كما تقدَّم يُعبِّر عن لحظات ومواقف تعتري مسيرة الحياة فحسب. ومن شعر الشكوى، عند الأديب الشاهيني، قوله[٤٩]:

نَصَلَ الشَّبابُ وما نَصَلتُ عن الهَوى ... وبدا المَشيبُ وفيَّ فَضلُ تَصابي

وغَدَوتُ أعترضُ الدِّيارَ مُسلِّماً ... يَوماً فلَم تَسمَح بِرَدِّ جَوابِ

فكأنَّها وكأنَّني في رَسمِها ... أعشَى يُحدِّقُ في سُطور كتابِ

فهذه المقطوعة فيها غيرُ قليل من العاطفة الشَّجيّة، التي باحَ بها قلبُ الشاعر، حُزنًا على انقضاء عهد الشباب، حتى إنَّ ديارَ الأحبّة، التي كانَ يُكلِّمُها وتُكلِّمُه، تنكَّرَت له، فلم تردَّ عليه السَّلامَ، وهو أيضًا لم يعد يرى فيها رَوحَهَ التي كانت تحومُ في تفاصيلها وذكرياتها، ولا وُجوهَ الأحباب التي كانت ترتسم أمام ناظريه، ويخفقُ لها قلبُه، فبقيَ حائرًا تائهًا يتأمَّلها، كما يتأمَّل الأعشى سطور كتابٍ، فلا الكتابةُ واضحة، ولا النظرُ قادرٌ على اجتلاء الكلمات.

ومن شعره في الشكوى من الحظِّ العاثر، وانقضاء العمر بلا جدوى، وذهاب بهجة الحياة، والذي ضمَّنَه فلسفةً شائعة، محتواها أن العُمر لا يُحتَسَب إلا بما مرَّ فيه من أيام السعادة والسرور، قولُه[٥٠]:

لَحَى اللّه أوقاتي وضاعَفَ من صَبري ... على مَرِّها مَرَّ السَّحاب بلا قَطرِ

تُحاربُني الأيّامُ حتَّى كأنَّها ... تُطالبُني عَن كُلِّ مَن ماتَ بالوَترِ

عَدَدتُ أُويقاتي ولاحظتُ طيبَها ... فأجودُها ما مَرَّ في الحُلم من دَهري

إذا رُحتُ أُحصيها لأعلَمَ يُسرَها ... عَدِمتُ حَياتي والمَصيرُ إلى عُسرِ

متى ما اعتبرتَ العُمرَ ما كانَ صافيًا ... تَجِد رَجُلاً قد عاشَ عُمراً بلا عُمرِ

وتظهر سماتُ الإبداع هنا في استعمال البحر الطويل، الذي يُلائم مشاعرَ المَلَل والضِّيق، وفي استعمال الألفاظ ذات الطاقة الإيحائية والتخييلة، التي تُناسب الموضوع، كالأوقات والأيام والسحاب والصبر والحلم والدهر والعمر وغيرها[٥١].

٧- موضوعات أخرى:

يُصنِّف مؤرِّخو الأدب تحت عنوان «الموضوعات الأخرى» الأشعارَ التي قالها الشاعر في موضوعات متفرِّقة، لا تنتمي إلى الأغراض المشهورة عنده، ومن الطبيعيِّ أنها تختلف بين عصر وآخَر، بسبب تراجع بعض الموضوعات وتقدُّم أخرى، بحسب ما تُمليه طبيعة العصر، فمثلاً

(49) نفحة الريحانة 1/ 119.
(50) نفحة الريحانة 1/ 123. والوتر: الثأر.
(51) يُنظر في إيحاء الألفاظ ومناسبتها للموضوع: مجلة دواة، العدد34، لعام 2022، ص292، بحث بعنوان: الألفاظ الشعرية: طبيعتها وإيحاءاتها العاطفية، للدكتور محمود الحسن.

دمشق من خلال إطلالة من صالحية دمشق، في النصف الأول من القرن الماضي

كان الفخر من الموضوعات المهمة في العصر الجاهلي، لكنه تراجع في العصور المتأخرة، لأن الناس لم تعد تستسيغه، ولهذا أصبح يُدرَج في الموضوعات الثانوية، لأن الشعراء وإن تطرَّقوا إليه لكنهم يدخلون أوديتَه على استحياء، ويُحاولون تلطيفه بالحكمة أو التصوير، أو المزج بالموضوعات الأخرى، ويكتفون بالأبيات بدلاً من المطوَّلات.

ومن أمثلة الفخر عند الأديب الشاهيني قوله[٥٢]:

وما زالَت تُخبِّرُني المَعالي سِرارًا لا أُطيقُ له جِهارا
فإنْ أظفَرْ به فأنا حَرِيٌّ وإلّا فالمُقدَّرُ لا يُجارَى

فالفخر واضح في البيتين، إذ يذكر الشاعر أنه حَريٌّ بنيل المعالي، ولكن لا نجد تلك الصَّرخات المُعتدّةَ بالنفس، التي كنا نسمعها في شعر المتنبي مثلاً، بل يُلمِّح على استحياء، ويُتبِع فَخرَه بالتواضع أمام القدر، فيجعل البيتين بمثابة حكمة، وهو يُريد الفخر بنفسه حقًّا.

وللأديب الشاهيني في الفخر أبيات بثَّها في قصيدته التي مدح بها شيخ الإسلام يحيى بن زكريّا، التي تقدَّم الحديث عنها في غرض المديح، فمزج بين الفخر والشَّكوى من صروف الدَّهر، مُصوِّرًا نفسَه على أنه قويُّ العزم، صامد في وجه النَّكبات، صابرٌ على المصائب، لا تلوي ذراعَه المِحنُ والخُطوب، وممّا قاله فيها[٥٣]:

أنا يا دَهرُ لستُ إلّا قناةً لم يَشِنْها لدى المَكَرِّ النُّحُولُ
إن أكُنْ في الحَضيضِ أصبحتُ إنِّي في ذُرا الأوجِ كلَّ حينٍ أجُولُ
فطَريقي هيَ المَجَرَّةُ في السَّيـ ـرِ، وعندَ السِّماكِ دأبي المَقيلُ
صُنتُ نَفسي ترفُّعاً عندَ قَدري فكَثيرُ الأنامِ عِندي قَليلُ
فإذا قيلَ لي فلانٌ تَراهُ ذا جَميلٍ؟ أقولُ صَبري الجَميلُ
وَفَّرَت همَّتي عَليَّ وعَزمي ماءَ وَجهي، فسَيفُ عِرضي صَقيلُ

ومن الموضوعات التي عُني بها الأديب الشاهيني موضوعُ الهجاء، إلا أنَّه ليس كالهجاء المعروف في العصور السابقة، وَإنّما الهجاء المراد به المازحة والتندُّر، ومداعبة الأصدقاء، وإغناء المجالس بالفكاهة والسرور، ومن ذلك قوله في هجاء أبي البقاء الصّفوري الدمشقي الصالحيّ (ت ١٠٣٥هـ)، الذي وَلِيَ عدداً من المناصب، وكان من أعيان دمشق، إلا أنه كان متَّهَمًا بالسِّحر

(52) نفحة الريحانة 1/ 127.
(53) سلافة العصر ص379.

والتَّنجيم[٥٤]، حيث قال فيه الشاهِيني هاجيًا[٥٥]:

أبا البَقاء لَحاكَ اللّه من رَجُلٍ فيكَ الطَّبيعةُ قد قُدَّت من الحَجَرِ
كم تدَّعي بعلوم النَّجم معرفةً وما تُفَرِّقُ بينَ الشَّمس والقَمَرِ

ومن الموضوعات التي تطرَّق إليها الأديب الشاهيني في شعره الحكمةُ، وهي تحتوي خلاصة التجارب، ومنتهى ما يصل إليه الفكر المتأمِّل في الحياة، ومن حِكَمه التي تصلح أن تجري مجرى الأمثال قوله[٥٦]:

إذا أقبَلَت دُنياكَ يَومًا على امرئٍ كسَته، ولَم يَشعُر، مَحاسنَ غَيره
وإن أدبرَت سَلَبَت مَحاسنَ نَفسه ويُكسَى شُرورًا عن مَلابسَ خَيرَه

ومن الموضوعات التي تطرَّق إليها الشاهيني موضوع التهالك على اللَّذات، على نَحو قوله[٥٧]:

لمّا رأيتُ العَيشَ من ثَمَر الصِّبا وعلمتُ أن العَفو حظُّ الجاني
أدركتُ ما لا سَوَّلَتهُ شَبيبَتي وفعلتُ ما لا ظَنَّهُ شَيطاني

فهذان البيتان يصلحان أن يجريا مجرى الأمثال، لسهولتهما وطرافة معناهما، إذ إنَّه بعد أن أيقنَ بعفو اللّه فعل من اللَّذات ما لا تُوسوسُ به النفسُ من الشهوات، ولا يخطرُ على بالِ الشيطانِ منَ المُغويات.

ومعنى أن العفو من حظِّ الجاني ليس جديدًا، فقد تداوله الشعراء، وأجاد فيه السلاميُّ الشاعر (ت ٣٩٣هـ) في قصيدته البائية التي مدح بها الصاحبَ بن عبّاد (ت ٣٨٥هـ)، حيث قال[٥٨]:

تَبَسَّطنا على الآثام لمّا رأينا العَفو من ثَمَر الذُّنوب

ولكن الجديد عند الأديب الشاهيني هو البيت الثاني، والرَّبط بينه وبين البيت الأول، إذ جاء في غاية الجمال والعبقرية. وأظنُّه ما قال البيتين تعبيرًا عن مذهبٍ اختاره في الحياة، وإنَّما بقصد التفنُّن في التعبير والمعاني.

ومن موضوعاته الأخرى التصوير، حيث أصبح عند كثير من الأدباء، في عصر الشاهيني، غرضًا قائمًا بذاته، يتَّخذه الشاعر ميدانًا لإبراز موهبته وقدرته على الصوغ والتأليف، ومن بدائع تصويره قوله[٥٩]:

قد كانَ يُمكنُ أن أكُفَّ يَدَ الهَوى عنِّي وأعصيَ في البُكاء جُفوني
لكنَّ لي صَبرًا متى استنجدتُهُ ضَحكَ الهَوى وبكَت عليَّ عُيُوني

فالجمال في هذين البيتين يكمن في غرابة المعنى، وفي الطباق والمقابلة بين ضحك الهوى وبكاء العيون، وما أظنُّه قال البيتين إلا لهذا الغرض.

(54) تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 1/ 113.
(55) خلاصة الأثر 1/ 113- 114.
(56) نفحة الريحانة 1/ 128.
(57) نفحة الريحانة 1/ 135.
(58) يُنظر: الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص198.
(59) خلاصة الأثر 1/ 216.

_ الخاتمة والنتائج:

تحدَّثت في البحث عن أديب الشام أحمد بن شاهين القبرصي الدِّمشقي، فعرضتُ حياتَه ومسيرتَه العلمية وخصائص عصره، ثم تكلَّمت على الأغراض الشعرية عنده، مع ما يتطلَّبُه العرض من إشارات نقدية وتاريخية.

وانتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- شهدت دمشق، في القرن الحادي عشر الهجري، ازدهارًا كبيرًا في النواحي الفكرية والعلمية والاقتصادية، ظهرت آثاره في التعليم والتصنيف ونبوغ كثير من العلماء والأدباء.

٢- ليس صحيحًا ما يُشاع عن عصر ابن شاهين وما بعده عن تراجع الأدب ودخوله في مرحلة الجمود والتقليد، إذ ظهر في البحث أن مسيرة الأدب لم تتوقَّف، ولم تخبُ جذوتُها، وأن القول بضعف الشِّعر في هذه العصور قد يُلامسُ طرفًا من الصواب، بسبب إقبال الناس على العلم، وعدم تفرُّغهم للأدب، فأصبح كلُّ مَن يتعاطون الشعرَ والنثر هم من العلماء، ومن الطبيعي أن يكون مستوى أدبهم دون مستوى الأدب في العصور السابقة، التي كان أدباؤها يكتفون بالعلم الضروريّ، ويُفرِّغون أذهانهم للتفكير والتأمل والاهتمام بالأدب.

٣- يُعَدُّ أحمد بن شاهين من كبار علماء دمشق وأدبائها، وله إسهامات كبيرة في الحركة الفكرية في عصره، وكان يُوصَف بأديب الزمان، وأديب الدَّهر.

٤- ترك الأديب أحمد بن شاهين عددًا من المؤلَّفات في اللغة والأدب، وله ديوان شعر كبير، لم يصلنا منه إلا ما احتفظت بك كتب الأدب والتراجم.

٥- تتوزع الأغراض الشعرية عند الأديب الشاهيني على: المديح، والرثاء، والوصف، والاعتذار، والغزل، والشَّكوى، إضافة إلى موضوعات أخرى لم يصلنا عنها إلا القليل من أشعاره، كالفخر، والهجاء، والحكمة، والتصوير.

٦- معظم أشعار ابن شاهين، التي وصلتنا، هي مقطوعات ونُتَف ومُختارات، تتوافق مع مناهج التصنيف في الأدب والتراجم، وهناك قصائد مُطَوَّلة، بلغت إحداها (٩٥) بيتًا، وهذه المطولات تدلُّ على مستوى الشاعريّة، وغزارة الإنتاج.

٧- تتميَّز أشعار ابن شاهين بتنوُّع موضوعاتها وبحورها وقوافيها، وغناها بالعاطفة، إضافة إلى عذوبة الألفاظ، وسلاسة التعابير وانسيابها، والبعد عن مذهب الصَّنعةِ والتكلُّف قدر المستطاع.

٨- يبلغ مجموع أشعار ابن شاهين، المحفوظة في كتب التراجم والأدب، نحو (٥٠٠) بيت، إضافة إلى بعض الرسائل النثرية، وهذا الإنتاج المحفوظ يصلح أن يُجمع في كتاب مستقلّ.

مصادر البحث ومراجعه

- الإعجاز والإيجاز، للثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، مكتبة القرآن، القاهرة.
- أمراء البيان، لمحمد كرد علي، تحقيق: محمد العزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التاريخ الإسلامي- العهد العثماني، محمود شاكر، ط٤ ، المكتب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٠ .
- التذكرة الحمدونية، لابن حمدون (ت ٥٦٢هـ)، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، ط١ ، دار صادر، بيروت ١٩٩٦ .
- جواهر الأدب، للسيد أحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، مؤسسة المعارف، بيروت.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي (ت ١١١١هـ)، دار صادر، بيروت.
- الدولة العثمانية، للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الفكر العربي، بيروت.
- ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار الجيل، بيروت.
- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦ .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس.
- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، لابن معصوم (ت ١١١٩هـ)، ط١ ، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٣٢٤هـ.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٣ هـ.
- الصبح المُنبي عن حيثيّة المتنبي، ليوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ)، ط١ ، المطبعة الشرفية ١٣٠٨هـ.

- الصناعتين، لأبي هلال العسكري (ت ١٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
- عصر الدول والإمارات: الشام، للدكتور شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت ١٩٨١.
- مجلة دواة، العدد٣٤، لعام ٢٠٢٢، ص٢٩٢، بحث بعنوان: الألفاظ الشعرية: طبيعتها وإيحاءاتها العاطفية.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٤، دار المعارف، القاهرة.
- نفحة الرَّيحانة، للمحبي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧.
- نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت ٧٣٣هـ)، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٣هـ.